الأستاذ شوقي مارتينوس

الربيع في أيام زمان
(قصة قصيرة)

كان يتسللُ إلى أحيائنا القديمة المتراصّة البيوت، المتشابكة الجدران، المتلاصقة الدور والمتشاركة "الحواكير"...وهناك في الحقول البعيدة يدخل اجتياحاً ، فالحارات ضيقةُ البَراحِ والأزقّة، وقليلٌ تراب الجنائن والفسحات، باستثناء بعض الأحواض و"التَنك" المليء بالتراب، عبّأتْها النساء ذات البشاشة الدائمة، للشعور بقدومه، وإحياء موسمِه، إذ كانت حياتنا كلها مواسم.

نعم ،هو الربيع، إنتظار أهالينا، يهلُّ أوائل آذار، مُرسلاً رسلَه نسيمات دفءٍ، وبراعمَ وعيون أزهارٍ تتفتّحُ عند المداخلِ وفي النوافذ وفوق التصاوبين... أزهارٌ تحويها "تنكات" بأحجامٍ مختلفة، ومقاساتٍ متعددةٍ، وألوانٍ متفاوتةٍ، جمعتْها نساء البلدة على مدى سنين من إستهلاك السمن والزيت والحليب...فلا شيء يُرمى بل كلّ سلعةٍ يُطالِب بها الزمن ويأتي وقتُها. فالناظر إلى درجات البيوت ومداخلها وتصاوينها للمرة الأولى يَعجبُ من إنتشار تلك المجامع التي أَلِفتْها أنظارُنا، فقد اعتدناها.

مجامعُ تتغلغل في أتربتها جذورُ أزهارٍ بلديةٍ، قمة في الجمال والروعة، وتثاقُفِ الألوان، وعبق العطور، وانتشار الشذى، تتفاخرُ بها وتتسابق ربّاتُ البيوت في إظهار رونقها وجمالها وإطالة عمرِها .

تلك مزارعُ إنموذجية- إذا صح التعبير- لأصناف مهددة بالإنقراض، إختفى معظمُها اليوم بانكفاء تلك الزارعات من أمّهاتٍ وخالات وجدات وعمات...

بعضُ جيوب الربيع في أزقّتنا ،فلا طاقةَ له أكبر، تواجدٌ متواضع يُفَعِّله شمّ النسيم والمَضْعَف، زنبقُ مار يوسف، وشبُّ الليل، وغيرها من الأصناف الزاهية الألوان... حيث تعمد النساء إلى إكثارها عن طريق المبادلة والمقايضة.

تلك أيام ولّت، فقد تغيّرت عبوات السمن والحليب والزيت، وطغى النايلون و"فازات" البلاستك على كل شيء حتى الهمم ،فلا سفارات للربيع بين تلك الدور الضيقة أو ما تبقى منها، ولا رسمَ للزينة(البدوية) على علب السمنة، أورسوم البقرة الحلوب ...ولا شذى للزهور مع النسيمات الدافئة في الأمسيات، ولا عطورَ للزنابق التي استقامت في الأحواض ولا...
كلها ذوت مع من ذووا، تلاشى أريجُها مع من راحلوا ؛ عاجزون نحن عن توصيفها لأولادنا، فهم ما اختبروا رائحة تلك الأمهات والجدات والخالات والعمات